الاوبئة والتاريخ (١)

عمر البرنامه القرماء

وفي القرون الوسطى والعصر الحديث

للاوبئة تأثير عظيم في التاريخ . فظهورها فجأة وعنفها وفتكها الذريع وما تتركه في نفوس الناس من شعور العجز ، كل ذلك يجعلها عاملاً من عوامل التفكك المعنوي وباعثاً من بواعث الانهيار في القانون والنظام

ومن المعروف ان قدماء المصريين والهنود والصينيين كانوا عرضة لبلايا الاوبئة . ولكن من بواعث الاسف اننا لا نستطيع ان نبيّن الامراض التي كانوا يبلون بها . اما الوثائق المصرية فأدق . وفيها نستطيع ان نتبيّن طائفة من الامراض كانت تصيبهم ولا تزال تصيبنا . وقد اشار جاريسون Garrison في كتابه « تاريخ الطب » الى ان الجذام كان بينها ومن المحتمل السلّ

واول وباء جارف دوّن ذكره في التاريخ هو الوباء الذي وصفهُ المؤرخ الاغريقي ثوسيديدس في كتابه « حرب البلوبونيقة » . كانت الحرب ناشبة بين اثينا واسبارطة وكان قد انقضى عليها سنتان . وكان الجيش الاسبارطي قد اكتسح البلاد حول اثينا فاجأ السكان الى داخل اسوارها فاشتدّ بهم الزحام فتفشى بينهم وباء شديد وعجز الاطباء عن مكافحة داء جديد لا يدرون من طبائعه شيئاً فضاعت مساعيهم هباء وسلّم الاثينيون مصيرهم الى الاقدار

وكان المرض عندما يصيب احدهم يبدأ بشعور الحمّى في الرأس . ثم تحمرّ العينان وتلتهبان ويتبع ذلك عطاس متكرر ثم يخشن الصوت ويتسع صاحبهُ أجشّ . بعد ذلك يسقط المرض على الصدر فتأخذ المريض نوبات من السعال العنيف ثم الى المعدة فيصاب بالقيئان ، وكان معظم المرضى يصاب بالفواق او بالتشنج العنيف ، وكان التشنج قصير المدى في بعضهم وطويله في البعض الآخر . وكانت درجة الحرارة ترتفع كثيراً حتى يعسر على المصاب ان يتحمل الملابس عليه او التدثر بدثار ما . وكان لا بدّ من استعمال وسائل المنع للحيلولة بينهم وبين الغوص في الماء البارد . وعلاوة على كل هذا كان الارق يصيبهم فلا يخلدون لا الى راحة ولا الى نوم

(١) موجز كتاب لرنمي بهذا العنوان تأليف اليم كوبا Hebert Cobat عن مجلة « ملخص العلم »

واذا استطاع المصاب ان يغالب هذه الاعراض ، انتقل المرض حينئذ الى اطرافه فتصاب الاصابع واليدان والقدمان والعينان بالفتور . فاذا شفي احدهم كان يشفى وقد فقد نعمة الذاكرة . ولما كان السكان يجهلون سبب تفشي المرض واسلوب انتقاله ، كانوا يجتنبون بعضهم بعضاً ويعتمون عن اسماف المصابين حتى الطيور من أكلة الجيف كانت لاتقارب جثث الموتى

إن اطباء العصر الحديث غير مجمعين على صفة مرض هذه اعراضهُ . ولعلَّهُ مرض زال الآن ، او لعلَّهُ حمى التيفوس تصحبها امراض أخرى او قد يكون الحمى الشوكية او الحمى القرمزية او الحمى الصفراء او الجدري . وقد بحث الاطباء جميع هذه الآراء . ثم أضاف اليها الدكتور بيتو Betau حديثاً رأيهُ في ان هذه الاصابة كانت حمى الدنغ وقد ضاعفتها الاصابة بالجراء

***

أما صفحات تاريخ القرون الوسطى فحافلة بذكر الالم واليأس . فالمجاعات المخيفة والامراض الجفية كانت تصيب الناس فتبدِّد شملهم وتنزل بهم الى وهدة القبر . وكانت أوبئة الحصبة والجدري تفتاهم . بل ان الجذام تحوَّل وباءً فأصيب به ألوف من الساكنين . وجاءت غزوة العرب لاوربا الجنوبية الغربية معواناً على اثارة هذا الداء الذي أكثر ما جنوب غرب اوربا خاصة ، بل لقد كان الجذام يعرف في تلك المنطقة من أوربا باسم « الداء العربي » . وكانت الصلات التجارية في البحر المتوسط وسيلة من الوسائل المتعددة لنقل العدوى

وهناك مرض آخر كان ينتشر حيناً بعد حين فيترك في أثره الموت والخراب والقنوط وكان يوصف بلفظي « النار المقدسة » او « نار الجحيم » . ظهر وانتشر في أوربا في القرن الثاني والحادي عشر والثاني عشر ، فتك بالناس فتكاً ذريعاً . وكان المصابون به ، تأخذهم حرارة داخلية لا تطفىء . ثم كان بعض الاعضاء يسودُّ وينفصل عن باقي الجسم ، فاذا ظلَّ المصاب حيًّا عاش بقية حياته عيشة ويل ويأس

وقد روى أحد المؤرخين ان هذا الداء حصد ٤٠ الفاً في بضعة أيام في اربع من الولايات الفرنسية

***

أما الحروب الصليبية فقد فتحت أبواب أوربا للجرذ . فعلى الرغم من البحث المدقق في آداب اليونان والرومان القديمة لم يعثر الباحثون فيها على اشارة واحدة الى الجرذ ، ولعلَّهُ كان يعيش بريًّا في صحاري مصر وبلاد العرب . وبهذا يفسَّر عدم اتصاله بأوربا عن طريق السفن التجارية ، او عن طريق غزاة العرب لاوربا

وكان الجرذ الاول الذي وصل الى أوربا هو الجرذ الاسود . فهو حيوان يحب التسلق

ولذلك كان يسهل عليه ان يتسلق الحبال الى السفن الراسية . وقد شوهد في اوربا اولاً في القرن الثاني عشر ، فما انقضى القرن الثالث عشر على ختامه حتى كان قد انتشر في ارجاء اوربا . ولم يكن معروفاً حينئذٍ انهُ من نقلة مرض معدٍ ، ولكن سطوه على الحقول في ايام الحصاد وعلى الاعراءات جعلتهُ شرًّا ونكبة على الاهلين فكانوا يعمدون الى الصلاة والضراعة للتخلص منهُ ونشأت بينهم حرفة جديدة هي حرفة «صائد الجرذان» . ولكن الضراعة عجزت عن ردِّ شرّه ، وكذلك محترفو صيده

ولكن ماعجز عنهُ الانسان حققهُ حيوان آخر هو الجرذ الاسمر . فهو أصلب بنية وأشد شرهاً من زميله الاسود ، جاء على ما يلوح من قلب آسيا وأخذ ينتشر في اوربا في القرن الثامن عشر . ففي سنة ١٧٢٧ اجتازت طوائف كبيرة من الجرذ الاسمر نهر الفولجا بروسيا ، ووصلت اميركا حوالي سنة ١٧٧٥ وانتشرت فيها . وفي اقل من قرنين كانت هذه الجرذان قد طوقت الكرة الارضية . الاَّ المناطق القطبية . وكان من نتائج انتشارها انقراض الجرذ الاسود الاَّ جماعات صغيرة منه ظلَّت مقيمة في اماكن لم يبلغها الجرذ الاسمر

وخطر الجرذ في نقل الامراض المعدية ، أعظم جدًّا من خطره في السطو على الغلال . ومن الامراض التي تنتقل بواسطة الجرذان الطاعون الدمّلي (الذي وصف في القرون الوسطى باسم « الموت الاسود ») وحمى التيفوس والكلب وبعض الامراض الناشئة عن ميكروبات لولبية (spirochetes) . ولعلها تنقل « التريخنوسيس » كذلك

ويذهب المؤرخون الى أن وباء الطاعون الذي تفشّى في القرن الرابع عشر كان أعظم الاوبئة في التاريخ وأشدّها هولاً . وهو هذا الوباء الذي يشار اليه في كتب التاريخ والادب باسم « الطاعون الاسود » و « الوباء الكبير » و « الموت الاسود » . فقد بدأ في شمال الصين في سنة ١٣٤٦ حيث فتك بثلاثة عشر مليوناً من الناس في أقل من سنة . ثم أخذ ينتشر متجهاً الى اوربا — مسايراً طرق التجارة . فحصد سكان البلدان الواقعة على مسيره حصداً . ويقال انهُ فتك بالسواد من الناس في المنطقة الواقعة حول دمشق وأورشليم . والمرجح ان عدد ضحاياه في آسيا كلها ما عدا الصين ، بلغ أربعة وعشرين مليوناً . وصيت به جميع جزائر البحر المتوسط . ولم يبقَ من فتكه في جزيرتي كورسيكا وسردينيا سوى ثلث السكان . ومات به أربعون الفاً في جنوى . ومائة الف في البندقية . وثلث سكان بادوى . وكان يموت به الفان كل يوم في بولونا وفرارا . ثم غزا المانيا فبلغ ضحاياه فيها مليوناً وربع مليون . وفقدت به بولندة نصف سكانها

وتفشى في فرنسا تفشياً ذريعاً . فمات به في مدينة اڤينيون وجوارها مائة وخمسون الفاً في سبعة أشهر . وخسرت مدينة آرل نصف أهلها ومرسيليا ثلثيهم . ثم تخطى البحر مع الجرذان

والسفن الى انجلترا فبلغ في عنفه درجة لم يسمع بمثلها حتى ليزعم بعضهم ان عشر سكانها فقط نجوا من فتكه . ثم انتقل الى النرويج حيث حصد ثلثي السكان . وأما اسكتلندا فكاد ان يفتك بجميع سكانها ، وما زالت اسكتلندا عاجزة عن استرداد ما فقدته به من اقبال ورخاء

لسوق هذه الارقام على وجه التقريب . ولكن جميع المؤرخين مجمعون على ان وباء الطاعون الكبير قتك بثلاثين الى اربعين مليوناً من سكان أوربا . فاذا أضيف الى ذلك عدد ضحاياه في الصين وسائر القارة الاسيوية بلغ عددهم من ٧٠ الى ٨٠ مليوناً . كان بينهم الغني والفقير ، والنبيل والفلاح — وقد كان من ضحاياه ملكة نافار شقيقة امبراطور المانيا ودوق برغندي وملكة فرنسا وملكة اراجون وملك قشتالة

وصحب الطاعون الاسود ، وتلاه انحلال اجتماعي اضيفت آثاره الى ويلات المرض والموت . فقد كانت الجماهير تلاحق الاطباء الذين يعنون بالمرضى وترجمهم بالحجارة ، خشية أن تتصل بهم العدوى من الاطباء . وليس بالنادر أن نجد الوباء عاملاً حاسماً في حروب ذلك العهد . ففي انكلترا خلّف آثاراً من الاضطراب والقلق دامت سنين كثيرة وبلغ من كثرة الماتين به ان قلت اليد العاملة وارتفعت الاجور ارتفاعاً فاحشاً . اما عند صغار الفلاحين فقد كان الوباء مرادفاً للخراب علاوة على الموت . وبتجدد ظهور الوباء في سنة ١٣٦١ و ١٣٦٩ و ١٣٧٣ زاد الاضطراب الاجتماعي وتفاقم

***

وقد صحب رحلات الريادة في القرن الخامس عشر ، تفشي اوبئة كثيرة . فقد ظهرت الحمى الصفراء في عهد رحلة كولومبوس الثالثة ، فأصيبت بها الجاليات التي انزلها لاستعمار جزائر بحر كريب وفتكت بها . وكان اللون الشاحب الذي يبدو على وجوه المصابين ، يبعث الرعب في قلوب الاسبان عند رجوع المصابين الى وطنهم . ولم ترحم هذه الحمى سكان البلاد الاصليين . ولكن الامراض التي انتقلت اليهم مع الاوربيين كانت اخطر شأناً واشدّ فتكاً . فالسلّ حوّل تلك الجزائر قفاراً وحمّى التيفوس كانت تحصد الهنود الحمر بالالوف

وكان المرض والوباء كانا يسيران في اثر الروّاد الاسبان واتباعهم من المستعمرين . فأصيبت جميع المستعمرات بأوبئة مختلفة . وبلغ عدد الماتين في جزيرة هايتي مبلغاً جعل دفنهم متعذراً . فقد حصدت الجدري منهم نحو ثلاثمائة الف في بضع سنوات . وانتقلت الجدري مع الفاتح كورتز الى المكسيك فتكت فتكاً ذريعاً حتى لم يبق من الفلاحين من يكفي لحرث الارض وزرعها فمات كثيرون جوعاً وغدت امبراطورية « الازتيك » مقبرة واسعة . اما وباء الجدري الكبير الذي تفشى سنة ١٥٢٠ فقد قضى على ثلاثة ملايين ونصف مليون اي نصف السكان

ومع ذلك لم يكن هذا الوباء اعظم مصائبهم . ذلك بان مرضاً جديداً ظهر سنة ١٥٣١ منقولاً مع الغزاة . وهو مرض الحصبة . ثم في سنة ١٥٤٥ ظهر مرض دعاهُ اهل البلاد « ماتلازهوات » . ويقال انهُ حصد ٨٠٠ الف والغالب على الظن انهُ الجدري . ثم تفشى وباء الجدري ثانية في سنة ١٥٧٦ فات به ما لا يقل عن مليونين

***

وقد كانت رحلة كولمبوس الاولى ذات شأن كبير في تاريخ أوربا . فهي لم تفتح بلداناً جديدة فيها حيوانات ونباتات غريبة فحسب، بل كانت سبيلاً الى نقل جراثيم الزهري (الحلق السفلس) من العالم الجديد الى العالم القديم . ويقال ان انتشار الزهري في أوربا يرتد الى بحارة كولمبوس الذين أصيبوا به خلال اقامتهم بين الهنود الحمر في هايتي . وكانت غزوة الملك شارل الثامن الفرنسي لايطاليا سبيلاً من سبل نشر هذا المرض. في اثناء حصار جيشه لمدينة نابولي ظهرت بوادر ذلك المرض الذي أرعب أوربا

وكان مرض الزهري حينئذٍ على جانب من العنف والحدة لا يقرن بهما الآن . فكان المصاب تعتريه القروح . وكان المرض شديد العدوى . وبعد ما أخذت مدينة نابولي تفرق الجيش الفرنسي ناشراً عدوى الزهري في ايطاليا ومنها انتقلت الى فرنسا فالمانيا وانكلترا . وكان الاطباء عاجزين عن وقفهِ ، فوصفهُ الفرنسيون حقاً منهم بقولهم انهُ « مرض نابولي » حالة ان الاسبان والايطاليين وسموهُ « بالمرض الفرنسي » (١)

وانتشر الزهري بسرعة عظيمة ، فعزيت طريقة انتقاله الى الهواء والماء والنَّفَس (٢) . وعمد الناس الى العطور للتغلب على الروائح الكريهة التي تنبعث من قروح المصابين . وأقفلت الحمامات العامة . وكان من آثاره الاجتماعية انْ تأثير الزهري في احداث الصلع حدا بالناس الى ارسال شعر الرأس واللحى والشوارب ، فغدا كل من يظهر في المجتمعات العامة وشعره غير مرسل تحوم حولهُ الريب في انهُ من المصابين

(١) جاء في كتاب الشياطين والعقاقير والاطباء Devils Drugs and Doctors تأليف هارد صفحة ٣٤٠ ما يلي : وكان الاسبان يدعونه مرض اسبانيولا والايطاليون المرض الفرنسي والفرنسيون المرض الايطالي والانكليز أسموه الى الفرنسيين وكذلك الترك . واما الروسيون فسموه المرض البولندي والهنود واليابانيون المرض البرتوقالي

(٢) يقول هيجارد . واتهم السكردينان ولسي بأنه نقل عدوى الزهري الى الملك هنري الثامن بهسه في أثناء . ومن المؤكد ان هنري الثامن كان مصابا به والغالب ان عدواه به ترجع الى مصادر غير كلمات السكردينان . وفي سنة ١٤٩٧ صدر قانون في فرنسا يحظر على المصابين به التحدث مع الناس تحت عقاب الاعدام

والكوليرا مرض قديم الانتشار في الهند . ولكنهُ امتدَّ في سنة ١٨٣٤ الى أوربا وسقطت اولى ضحاياهُ في باريس في ٢٢ مارس من تلك السنة . ثم ظهرت اصاباتها فجأة في مناطق مختلفة من العاصمة الفرنسية ثم انتشرت انتشاراً سريعاً في أوربا فاتت بها نحو مليون نسمة — ٤٠٠ الف في روسيا و ٣٤٠ الفاً في النمسا و ١٠٠ الفاً في أسبانيا و ٩٥ الفاً في فرنسا . ثم تفشى وباء الكوليرا في أوربا في سنة ١٨٤٧ وسنة ١٨٥٦ وكان ضحاياها اكثر من ضحايا وباء سنة ١٨٣٢ وكان آخر وباء كوليرا تفشى في أوربا وباء سنة ١٨٩٢ . وكذلك ظل هذا المرض خلال قرن كامل تقريباً يثير الرعب في نفوس الناس حتى نسوا ويلات الطاعون الدملي لشدة ما بلوا به منهُ

وقد كان الخوف من الكوليرا الباعث الذي حمل الناس على المطالبة بانشاء المجاري العامة وشتى الاعمال الصحية . فأعمال الصحة العامة في اوربا وأميركا هي وليدة هذا الخوف . ولا ريب في انها أثرت تأثيراً لا يعرف مداه في اساليب معيشتنا وطرائق عمارتنا وأفضت الى انشاء صناعات جديدة . وتثبت الحرب الكبرى على اثر فترة من السلام رانت على اوربا ، كان اهم سماتها التقدم العلمي العظيم . وغلب الظن بأن العلم تغلب على الاوبئة التي تنبئنا بها صفحات التاريخ . ولكنَّ وباء الانفلونزا تفشَّى في بدء سنة ١٩١٨ في الولايات المتحدة والصين ثم اتصل بفرنسا بعد اشهر فانتشر اولاً بين الجنود ثم بين عامة الشعب . وقد بلغ عدد ضحاياهُ في موجاته الثلاث المتوالية نحو عشرين مليوناً من الناس

***

وفي أثناء الحروب البلقانية عادت الحمى التيفوسية الى الظهور . ثم انقضت تلك الحروب ولكن شأفة المرض لم تستأصل من النمسا والمجر وبولندة وروسيا فلما نشبت الحرب الكبرى وعمت الجيوش الكبيرة عادت التيفوس الى الانتشار وكان اول مراتب انتشارها أمعر المعربين لستين الفاً من جنود النمسا فظهرت الحوادث الاولى في احد معتقلات الاسرى ثم انتشرت في الشعب . وعندما كان المرض على أشده كان يموت به سبعون في المائة من المصابين ثم بدأ انتشار المرض في الانحطاط في صيف ١٩١٥ ومع ذلك فالذين أصيبوا به بين يوليو وديسمبر من تلك السنة كانوا ٥٠٠ الف (مات منهم خمسهم (٢٠٠،٠٠٠)

وظهرت حمى التيفوس في رومانيا في سنة ١٩١٧ فاتت بها مائة الف بحسب الاحصاءات . ولكن اشدَّ فتكها كان في روسيا حيث اجتمعت مع الملاريا والدوسنطاريا وحمى التيفود والحمى القرمزية والجوع وسوء الحالة الصحية في نشر شياطين المرض والموت : وقد صدر تقرير في سنة ١٩٢٢ جاء فيه ان ٢٥ مليون اصابة بالتيفوس سجلت في روسيا في السنوات الاربع السابقة مات من اصحابها ثلاثة ملايين